قد يتحول الى ما هو ذاتي ، وبالعكس ايضا ٠

ان عملية الاكتشاف التي تنطوي على هذه المحاور الثلاثة يحكمها قانون الحياة والفن الذي يرفض هذه التقسيمات العقلية بوحدته العضوية ذات الايقاع المتناغم ٠

لكننا عمدنا الى وضع هذه المحاور ، لنتمكن من ولوج عالم حنا وفي يدنا المفتاح ، لنتمكن ما وسعنا ان نضع يدنا على النسخ الجوهري ، سابرين الناظم الرئيسي الذي يحكم وحدة عالمه الفني ٠

فعملية الاكتشاف تتم ـ وبدون تقسيم ـ حيث ان الشخصية التي تبحث عن ذاتها في عالم تقف أمام سره مشدوهة حيرى ، لا يمكن لها ان تكتشف ذاتها الا من خلال اكتشاف العالم ، لتتمكن من تأصيل وجودها في احدى محطاته ، وعند ما تكتشف العالم فهي تسيطر عليه ، وتعيد صياغته وتركيبه عبر الثورة ٠

ومن هنا تتم عملية الانتقال من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية ٠

فـ « أنجلز » يعرف الثورة الاشتراكية بأنها قفزة من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية ٠

وعلى هذا فالحرية اذن ليست مسألة فردية ، وانما هي مسألة تاريخية اجتماعية ، ان الوعي الجماعي الطبقي التاريخي لحكم الضرورة هو الكفيل بالثورة عليها ، وعبر الثورة يتم الانتقال الى مملكة الحرية ٠

واذا كانت الحرية تحكم بقانون تاريخي اجتماعي ، فهي تختلف من مجتمع الى آخر ، ومن مرحلة الى أخرى ٠ فـ « الحرية في ظل المجتمع العبودي ، غير الحرية في ظل النظم الاقطاعية ، غير الحرية في النظام الرأسمالي ، غير الحرية عندما تزول النظم السياسية وتختفي الدولة ، ويتحقق ارقى وارفع مستوى للحرية » (٢) ٠

واذا كانت الرواية تهدف الى رصد أفراد ، فان حنا الكاتب الواقعي ينمط قيم الطبقة من خلال هؤلاء الافراد ، ولذا فان الفرد المحكوم بشبكية الضرورة الخارجية تفرز الاغتراب وضرورة داخلية هي جزء وانعكاس للضرورة الخارجية ٠ وعلى هذا فان كاتبنا رصد في أعماله الاولى (المصابيح الزرق ـ الشراع والعاصفة ـ الثلج يأتي من النافذة) الضرورة الخارجية ، المتمثلة بمواجهة العسف (الاستعماري المتحالف مع البورجوازية) ٠ فكان طابع الصدام خارجيا يترك انعكاساته الخفيفة على الضرورة الداخلية ٠

اما في اعماله (الشمس في يوم غائم ـ الياطر) فهو يرصد الضرورة الداخلية والتي هي بذاتها محصلة ونتاج للضرورة الاولى الخارجية) ٠

على حين ان (بقايا صور ـ المستنقع) ستأخذ منحى جديدا تلتقي فيه كلتا الضرورتين لتسحق بفظاظة مريعة كل انشداد انساني للوقوف على الاقدام ٠

واذا كانت الثورة هي القفزة بين المملكتين ، فان كاتبنا لا يألوا جهدا في تصعيد وتسعير التناقضات القائمة الى أن تصل الى تراكم سعيري لبشاعة الضرورة ، لترتطم بعنف وقسوة بالتعطش الشديد للحرية من قبل ابطاله المشدودين ابدا بأعينهم نحو مملكتها المستقبلية ٠